فى المعلقات أيضاً

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

..... ولابد قبل المضى فى تكميل رأينا فى المعلقات أن نعود إلى الكلام على مذاهب علماء الأدب ، قدمائهم ومحدثيهم فى تسميتها ، فان الذى يراه أبو جعفر النحاس ليس كما ذكرناه فى (الرسالة) وذكره غيرنا قبلنا فتأثرنا به ، أن هذه القصائد سميت باسم المعلقات من قول الملك (علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزائنى) فيكون أبو جعفر على هذا مشاركا لغيره من القدماء فى قدم هذه التسمية ، ولا يخالفهم إلا فى توجيههم لها بأنها مأخوذة من تعليقها على الكعبة . ويذهب علماء العربية الأوروبيون بفضل الرأى الراجح الآن فى هذه التسمية ، أنها حديثة مصنوعة فى عصر التدوين أو قبله بقليل ، وأنا ننقل هنا كلام أبى جعفر فى ذلك لنرى مذهبه حقيقة فيه .

قال فى افتتاح شرحه للقصائد السبع : « الذى جرى عليه أمر أكثر أهل اللغة الأكابر فى تفسير غريب الشعر ، إغفال لطيف ما فيه من النحو ، فاختصرت غريب القصائد السبع المشهورة ، وأتبعت ذلك مافيها من النحو ، ولم أكثر الشواهد ولا الأنساب ، ليخف حفظ ذلك إن شاء الله تعالى » .

وقال فى آخر شرحه لها : « فهذه القصيدة آخر السبع المشهورات ، واختلفوا فى جمع هذه القصائد السبع ، فقيل العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون ، فاذا استحسن[1] الملك قصيدة قال : علقوها وأثبتوها فى خزائنى . فأما قول من قال إنها علقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصح ما قيل إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر ، جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم هذه المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة لهذا » .

فهذا صريح فى أن أبا جعفر لا يرى فى المعلقات أيضاً رأى من يذهب الى أن تسميتها بذلك مأخوذة من قول الملك (علقوا لنا هذه) وإن كان يراه أرجح من رأى من يرى أن تسميتها بذلك مأخوذة من تعليقهم لها بالكعبة ، فكلا الرأيين عنده مبنى على أن هذه القصائد كانت مجموعة قبل جمع حماد لها ، فكانت معروفة عندهم بهذا الأسم (المعلقات) أو غيره إن كان لها اسم غيره ، لأن جمعها هو الذى يجعل لها وجوداً خاصاً تحتاج أن تتميز فيه الى اسم من الأسماء .

وأبو جعفر ينكر جمع هذه القصائد قبل جمع حماد لها ، فهو عنده هو الذى جمعها ، لما رأى زهد الناس فى الشعر ، فجمعها لهم من الشعر القديم ، وحضهم عليها ، وهذا رأى آخر عند أبى جعفر غير ذينك الرأيين ، وقد رأه أصح ما قيل فى هذه القصائد

فهناك لقدمائنا اذن فى هذه القصائد ثلاثة آراء لا رأيان ، وأصح هذه الآراء الثلاثة عند أبى جعفر أن هذه القصائد لم يكن بعضها يمت إلى بعض قبل جمع حماد لها ، بل كانت منثورة فى الشعر العربى الجاهلى مثل غيرها من القصائد الجاهلية ، ولم تكن تمتاز عليها باسم يجمعها من اسم المعلقات أو غيره ، فلما جمعها حماد للناس قال لهم هذه المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة لهذا ، وهو الاسم الذى ذكرها به أبو جعفر فى افتتاح شرحه لها وفى آخره أيضاً . ولا شك أن تحاشيه ذكرها باسم المعلقات كما يسميها غيره ويوجهه بأحد ذينك التوجيهين دليل على أنه لا يرى صحة تلك التسمية ولا يرى صحة التوجيهين اللذين وجهوها بهما ، فهى عنده تسمية مستحدثة مصنوعة بعد الأسلام ، وبعد جمع حماد لها ، وهذا هو الذى ننسبه الآن الى علمائنا الأوربيين ليذهبوا بفضله ، وينسى فيه فضل أبى جعفر رحمه الله .

هذا وقد رأيت فيما رجعت إليه قبل كتابة هذا المقال من شروح المعلقات ، وقد تعلقت نفسى باستقصائها حتى يجىء بحثى وافياً فيها من تلك الناحية ، رأيت ما يتفق مع رأيى فى المعلقات فى مقدمة الطبعة المنيرية لشرح الخطيب التبريزى على المعلقات العشر ، إذ جاء فيها : (وذهب فريق إلى أن وجه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ومرؤوسيهم ورؤسائهم ، وذلك لشدة اعتنائهم بها) وهذا قريب من رأيى فى المعلقات ، وهو من عجائب توارد الخواطر ، ولكنه لم يبين فى تلك المقدمة

(١) لا يمكن أن يفهم من هنا ما فهم الأستاذ نولدكه أن هذا الملك كان معهم فى عكاظ ، فقال إنه من الصعب احتمال أن ملكا عربياً كان يشهد سوق عكاظ ، بل الذى يفهم منه أنه كان يفعل ذلك وهو فى حاضرة ملكه بعد أن يجمع العرب على استحسان القصيدة فى عكاظ ، ولا شك أن خزائنه فى حاضرة ملكه ، فلا يقول أثبتوها فيها إلا وهو بها .

هل يذهب من يرى هذا فى المعلقات إلى أن تلك التسمية على توجيهة قديمة أو مصنوعة ، والظاهر أنه يراها قديمة ، وهو خلاف ما نراه فيها على توجيهنا لها .

وقد جمعت هذه القصائد السبع بعد جمع حماد لها جمعاً آخر مع قصائد أخرى يبلغ جميعها تسعاً وأربعين قصيدة ، قال عنها المفضل الضبي إنها عيون أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام ، وأنفس شعر كل رجل منهم ، وهى التى جمعها أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشى فى كتابه جمهرة أشعار العرب .

ويخالف المفضل حمادا فى أصحاب هذه القصائد السبع ، فهم عند حماد : امرؤ القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، ولبيد بن ربيعة . وهم عند المفضل : امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم، وطرفة . وقد تبع المفضل فى هذا أبا عبيدة ، وقال عن الشعراء السبعة : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط ، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة » . ثم ذكر بعد هذا السبع المجمهرات ، والسبع المنتقيات ، والسبع المذهبات ، والسبع المرائى ، والسبع المشوبات ، والسبع الملحمات .

وإذا كان المفضل يخالف حمادا فى هذا فهو يوافقه فى أنه لم يرد فيما رواه أبو زيد القرشى عنه تسمية هذه القصائد السبع بالمعلقات ، ولم يذكر إلا أن العرب تسميها السموط ، فاذا كان يعني العرب الأقدمين فهى تسمية جاهلية ، وإذا كان يعني العرب فى عصره فهى تسمية إسلامية . وقد كانت العرب قبل الاسلام تطلق هذا اللفظ على غير هذه القصائد السبع ، ومن ذلك ماروووا أن علقمة الفحل كان يأتى مكة فيعرض شعره على قريش ، وكانت العرب تعرض أشعارها عليهم ، فما قبلوا منها كان مقبولاً ، ومارودوا كان مردوداً ، فأتاهم مرة فعرض عليهم قصيدته :

هل ما علمتَ وما استُودعت مكتومُ
أم حبلُها إذ نأتْك اليومَ مصرومُ

فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم فى العام المقبل فأنشدهم قصيدته فى مدح الحارث الغسانى ، وكان أسر أخاه شاسا فرحل إليه يطلبه :

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيبُ

فقالوا هاتان سمطا الدهر

ويمكننا بعد هذا أن نجزم بأن اسم السموط كان يطلق عند العرب على قصائد غير هذه القصائد السبع ، ولا يدل ما ذكره المفضل على حصر هذه التسمية (السموط) فى هذه القصائد السبع ، وإنما معناه أنها كانت تسميها السموط فيما كانت تسميه بذلك من قصائدها ، فلا يدل ذلك على أنها كانت مجموعة متميزة عند العرب بهذا الاسم قبل جمع حماد لها ، بل يتفق هذا أيضاً مع ما رجحه أبو جعفر النحاس من أن حمادا هو الذى جمعها ، ولا يخالفه فى شيء من المخالفة .

هذا وقد كانت وفاة حماد الراوية سنة ١٥٥ هـ ، ووفاة المفضل الضبي سنة ١٦٨ هـ ، ووفاة أبي زيد القرشى صاحب الجمهرة سنة ١٧٠ هـ ، فنستطيع مع هذا أن نحكم بأن هذه القصائد السبع ما كانت تعرف باسم المعلقات إلى سنة ١٧٠ هـ ، وإنما كانت تسمى القصائد المشهورة أخذاً من قول حماد فيها بعد جمعها هذه هى القصائد المشهورة ، وكان يقال لها السموط كما كان يقال لبعض قصائد أخرى ، فلم يكن هذا اسماً خاصاً بها ، وقد سماها المفضل السبع الطوال فيما نقله أبو زيد فى الجمهرة عنه .

وقد نقبنا فى المقدمة التى ذكرها أبو زيد فى جمهرته قبل القصائد السابقة التى أوردها فيها ، فلم نجد فيها ما يمكن أن يؤخذ منه أن السبع الأولى منها كانت تسمى فى عصره باسم المعلقات . وكان الواجب على طابعى الجمهرة أن يلاحظوا ذلك فلا يضعوها تحت اسم المعلقات ، ولا يذكروا قصيدة امرىء القيس (قفانبك) تحت اسم معلقة امرىء القيس ، ولا قصيدة زهير (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) تحت اسم معلقة زهير ، وهكذا فى باقى السبع ، وهو خطأ ظاهر ، وتسمية لهذه القصائد بما لم يسمها به صاحب الجمهرة . فان كان هذا فى الأصل الذى طبعوا منه فهو خطأ من ناسخه قطعاً . ولعلنا نظفر بعد هذا بأول من سماها باسم المعلقات فى الزمن الذى بين أبي زيد القرشى وأبي جعفر النحاس وهو الذى أورد فيها ما نقلناه عنه من ذلك الخلاف ؟

عبد المتعال الصعيدى